مجلة الرائد

العدد : ٢٣٦ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/٥ ميلادي

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام	الكاتب : أ. متولي موسى

أولاً : مقدمة

إن خير ما توجه إليه الهمم العالية - وخاصة من قبل المؤسسات الإسلامية في الغرب - هو اتخاذ الأسباب وتوفير الوسائل التي تعمل على تهذيب النفوس وتزكيتها بالإسلام ، بُغْيَة تخليصها من أدران الشرك ، وقاذورات الذنوب والمعاصي ، وإقامتها على ما يباركها ويطهرها بالعلم النافع والعمل الصالح ، ولا شك أن هذه مهمة عظيمة ينبغي أن يوجد لها من يحققها في عالم تزايدت فيه وسائل الفساد والإفساد !!

لقد أرشد الخالق سبحانه ، العليم بخلقه الخبير بشؤونهم ، أنه سبحانه قد اختار صفوة من خلقه ، وشهد عزَّ وجلَّ أن هؤلاء الصفوة قد قاموا بمهمتهم خير قيام ، وأخبرنا عن خاتمهم ﷺ فقال سبحانه : { **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ... } [الأحزاب : ٢١] .

وعليه فقد قام هؤلاء المصطفون الأخيار - صلوات اللّه تعالى عليهم وسلامه - بوصفهم القدوات العملية في واقع الحياة ، قاموا بمهمة تطهير وتزكية المؤمنين بهم كما أرشدهم خالقهم ، وأنجزوا المهمة التي كلفوا بها ، ويكفي هنا أن نذكر بما ورد عن صاحب المنهج الخاتم في كتاب اللّه تعالى المحفوظ من كل تغيير أو تحريف ، فقد قال اللّه تعالى لرسوله ﷺ في القرآن الكريم : { **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ... } [التوبة : ١٠٣] ، وقال سبحانه مذكراً للبشرية بهذه المنة العظيمة منه تبارك وتعالى : { **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** } [البقرة : ١٥١] ، كما ذكّر اللّه تعالى المؤمنين من بني آدم بالفضل الخاص عليهم فقال عزَّ وجلَّ : { **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [آل عمران].

وإذا كانت مهمة تطهير النفوس وتزكيتها بهذه المكانة من عمل خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات اللّه تعالى وسلامه عليهم - فإنها أساس وقاعدة يجب أن تجتهد الأسر المسلمة في بلاد الغرب خاصة للنهوض بها والقيام بهذه المسؤولية ، إذ أن هذه المهمة في بلاد الغرب أعظم وأخطر منها في

البلاد الإسلامية ؛ ففضلاً عن أسباب الغواية والضلال عن منهج الحق الكثيرة ، لا توجد جهة تعليمية تنهض بوضع الأسس والمنطلقات التي تنطلق منها العملية التربوية في بلاد الغرب وفقاً لمنهج الإسلام الذي لا تعترف به معظم بلاد الغرب كدين رسمي ، بحيث تدخل مؤسساته في المنظومة الاجتماعية ، هذا بالإضافة إلى تجذر أسباب ووسائل صرف الإنسان عن الفطرة التي فطر اللّه تعالى البشر عليها .

نعم ، وجدت تجارب بشرية عديدة في الأرض وسجلت أهم ملامحها في كتب التاريخ ، إلا أن الكتاب الخالد والمحفوظ بحفظ الخالق ، سجل لمن أراد الحق ويبحث عنه بصدق وإخلاص أن النفوس التي تطهرت بمنهج اللّه تعالى صلح حالها وقالها وعملها وكانت هي القمم السامقة في تاريخ الإنسانية ، ولكل من كان له قلب سليم ويريد أن يأخذ العظة والعبرة فعليه أن ينظر إلى القصص القرآني - بوصفه أصح سجل للتاريخ - ليرى كيف تحول أهل الشر والفساد بالمنهج الرباني إلى صلحاء ، تطهرت قلوبهم وزكت نفوسهم ، وحسنت أخلاقهم ، وكان صلاحهم نابعاً من أعماق نفوسهم ، إذ أن الإنسان إذا تزكى وفق منهج اللّه تعالى استضاءت حياته ونفسه بنور الوحي ، وتطهر قلبه من الخبث والدنس ، وانعكس ذلك كله في واقع الحياة والسلوك ، قولاً صالحاً ، وعملاً متقبلاً ، وتحضرني هنا قصة الأعراب الذين أعلنوا إسلامهم ، وجاءوا إلى بيوت النبي بسلوكهم الذي لم يصبغ بعد بصبغة الإيمان فأنزل اللّه تعالى فيهم قوله : { **قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [الحجرات : ١٤] .

وقبل أن أنهي هذه المقدمة للدخول في فقرات الموضوع أحب أن أشير هنا إلى الفرق بين التزكية بالفعل والواقع والتزكية بالقول فقط ، فالأولى صاحبها ممدوح ، فهي التي تنتهج تربية السلوك وفق منهج الحق الذي ارتضاه الخالق سبحانه بالإيمان والعمل الصالح ، فهذا النوع من التزكية هو محل البحث والبيان ، وهو الذي يطالب به شرع اللّه عزَّ وجلَّ ، وجاءت التعليمات الإسلامية لتحقيقه في واقع الحياة ، وأما النوع الآخر من التزكية القولية ، والتي تتجلى في ثناء أصحابها على أنفسهم وواقعهم فهي مذمومة في شريعة الإسلام وقال اللّه تعالى لأهلها : { ... **فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** } [النجم : ٣٢

] ، ومن أراد المزيد في معرفة هذا النوع المذموم فليرجع إلى كتب تفسير القرآن الكريم ويطلع على تفسير الآيات التي وردت ضمنها هذه الآية في سورة النجم ، فسيجد بغيته بإذن اللّه تعالى .

ثانياً : لا تزكية للنفس بدون تحقيق العبودية لله تعالى

ربما يتصور بعض المربين والمفكرين والمنظرين أنه يمكن أن يتحقق تطهير النفس وتزكيتها بدون تحقق العبودية لله تعالى ؛ إنني أعتقد - بعد الإطلاع على عدد من المناهج الوضعية - أنه يجب على كل عاقل أن يدرك أن الخالق سبحانه وضع نواميس لتسيير هذا الكون ، وأرسل الرسل بالرسالات المتتالية للتعريف بهذه النواميس والسنن الكونية والبشرية ، وكانت رسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد اللّه ﷺ هي المهيمنة على الرسالات السابقة ، وعليه فعلى كل عاقل يريد الفلاح في الدنيا والآخرة أن يطلع على هذه الرسالة وأن يؤمن بها بعد أن يتبين له الحق ، فكل من أراد الخير عليه أن يسارع بالعبودية لله تعالى فهي التي تُبْقي النفس نقية طيبة حتى الموت ، مصداق قول الحق سبحانه : { **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** } [الحجر : ٩٩] .

نعم ، إن العبودية للخالق سبحانه هي التي تطهر النفوس من درن الشرك وعبادة الهوى التي تجعل الإنسان يتخبط في حياته وسلوكه كما هي أوضاع أكثر الناس في هذا الزمان ، وعلى كل عاقل أن يتدبر الحوار الجاد الذي نقله لنا الخالق سبحانه على لسانه إبراهيم عليه السلام في قوله عزَّ وجلَّ : { **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لأبيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۞ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا** } [مريم : ٤١-٤٥] .

هذا ، وقد أثبتت التجارب البشرية أن إهمال النفس الإنسانية وإبعادها عن الفطرة التي فطرها الخالق عليها من خلال مخالطة أهل الفساد يقذرها ويفسدها ، ومن رحمة اللّه تعالى بعباده أن النفوس

القذرة المتعفنة لا تفوح روائح قذرها وعفنها في الحياة قبل الممات ، وإلا لما استطاع الناس أن يجالس بعضهم بعضاً ، ويخالط بعضهم بعضاً ، وقد بين الوحي أن هذا المستور يتبدى إذا فارقت الروح الجسد ، وانتقل الإنسان إلى العالم الآخر ، فإن الأرواح الزاكية ينتشر عطرها ، ويفوح شذاها ، وأما الأرواح التي تدسى أصحابها في الدنيا ، فإن أصحابها أخبثوها بالذنوب والمعاصي ، فتفوح منها بعد خروجها من الجسد بالموت تلك الروائح الخبيثة والنتن ، الأمر الذي تتأذى منه الملائكة عن قبضها ، وكل من تمر عليه هذه الروح منهم .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة التي تبين أن المستور في الحياة الدنيا فيما يتعلق بالروح يتبدى - بالموت - ، وقد جمع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمه اللّه تعالى - هذه الأحاديث في كتاب " أحكام الجنائز وبدعها " فيمكن مراجعتها فيه ، ومن هذه الأحاديث يمكننا الخروج بالحقائق الآتية :

١- إذا مات الإنسان المسلم صاحب الحياة الإيمانية فإن روحه الطاهرة ينتشر عطرها في كل مكان تمر الملائكة فيه ، ويخرج منها مثل أحسن نفحة مسك وجدت ، ولا تمر تلك الروح على ملأ من الملائكة إلا قالوا : روح من هذه الطيبة الطاهرة ؟ فيقال : روح فلان بن فلان بأحسن أسمائه وأحبها إلى صاحب تلك الروح .

٢- أما صاحب النفس غير المؤمنة إذا مات ، فتفوح منها الروائح الخبيثة ، وتتأذى الملائكة التي حضرت لقبضها ، كما تتأذى الملائكة التي تمر عليها هذه الروح من نتنها وخبثها .

أما عندما يبعث اللّه تعالى العباد ، فإن ظهور فساد الأرواح أو صلاحها يكون أظهر وأبين ، ويلقى صلاح الإنسان أو فساده في الدنيا ظلاله على وجوه البشر في الآخرة ، فوجوه أصحاب النفوس المزكاة في الدنيا تكون مشرقة نيرة في الآخرة ، ووجوه أصحاب النفوس المدساة في الدنيا تكون مسودة مظلمة في الآخرة ، وهذا الذي قرره اللّه تعالى في القرآن الكريم في قوله عزَّ وجلَّ : { **يَوْمَ تَبْيَضُّ**

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام	الكاتب : أ. متولي موسى

وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [آل عمران : ١٠٦-١٠٧] . وقال عزَّ وجلَّ : { **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** ... } [الزمر : ٦٠] وقال تباركت أسماؤه : { **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۞ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** } [القيامة : ٢٢-٢٥] .

الخلاصة : نخلص مما سبق إلى أن الإنسان الكيس الفطن هو ذلك الذي يدين نفسه ويعمل لما بعد الموت ، وهذا الذي يشكر من لا تنقطع نعمة عنه ، ويجعل خضوعه بتزكية نفسه وتطهيرها لمن لا يخرج من ملكه وسلطانه ، ويجب عليه ألا يغتر بما تحقق في حياة البشر من تقدم مادي يفتن الناس عن العبودية لله تعالى ، والخضوع له سبحانه في تطهير النفس البشرية وتزكيتها بما يحقق الفلاح لها في الدنيا والآخرة .